

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد :

فمن فضل الله - عز وجل - على هذه الأمة أنه أكمل هذا الدين أعظم إكمال، وأتمه أبلغ إتمام، قال الله - تعالى -: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] .

وما قبض رسول الله ﷺ إلا وقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وأقام الحجة . وصح عنه ﷺ أنه قال : «إني تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(١) . فكل ما يحتاجه الناس في دينهم، فهو في كتاب الله - عز وجل - وسنة النبي ﷺ، كاملاً غير منقوص . قال الله - تعالى -: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] .

قال ابن جرير الطبري في تفسير الآية : «نزلنا عليك يا محمد هذا القرآن بياناً لكل ما بالناس إليه الحاجة، من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب»^(٢) . وفي تفسير قول الله - تعالى -: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] قال القرطبي : «أي : في اللوح المحفوظ، فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث . وقيل : أي في القرآن، أي : ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن : إما

(١) أخرجه : أحمد : (٤/١٢٦) . وابن ماجه في المقدمة : رقم (٤٣) . وإسناده صحيح .

(٢) تفسير الإمام الطبري : (١٤/١٦١) .

دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يُتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب. قال الله - تعالى -: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]. وقال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]. فأجمل في هذه الآية، وآية النحل ما لم ينص عليه، مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره، إما تفصيلاً، وإما تأصيلاً. وقال: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣]»^(١).

وإتمام الدين نعمة عظيمة من أجل نعم الله - عز وجل - على أهل الإسلام، ولهذا لما قال اليهود لسلمان الفارسي - رضي الله عنه -: لقد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة! قال: «أجل، نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، وأن نستنجي باليمين، وأن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم»^(٢).

وقال أبو ذر الغفاري - رضي الله عنه -: «تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم»^(٣).

وإذا تبين ذلك علم أن الكتاب والسنة هما أصل الاستدلال في الدين، والناس ليسوا في حاجة إلى مصادر أخرى؛ إلا ما بني عليهما من مصادر كالإجماع والقياس. ولهذا قال الإمام الشافعي: «فليس تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة، إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها»^(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «وقل أن تُعوزَ النصوص من

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٦/٤٢٠).

(٢) أخرجه: مسلم في الطهارة، باب الاستطابة: (١/٢٢٣)، رقم (٢٦٢).

(٣) أخرجه: أحمد: (٥/١٥٣، ١٦٢). وابن حبان: (١/٢٣٥).

(٤) الرسالة: (ص ٢٠).

يكون خبيراً بها، وبدلالاتها على الأحكام»^(١).

وقال ابن تيمية أيضاً: «ولا تجد من يقول إنه محتاج إلى غير آثار الرسول، إلا من هو ضعيف المعرفة والاتباع لآثاره، وإلا فمن قام بما جاء به الكتاب والسنة، أشرف على علم الأولين والآخرين، وأغناه الله بالنور الذي بعث به محمداً عما سواه»^(٢).

وإضافة إلى صحة الدليل فإن استقامة الاستدلال تنجي المرء من الزيغ والانحراف، قال الله - تعالى -: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]. فالدليل الصحيح هو الذي ينير للمرء سبيله، ويجعله يسير على الجادة الصحيحة المستقيمة، ويعيذه من الأهواء ومضلات الفتن.

ولعل من أبرز أسباب التفرق، وظهور البدع والأهواء: اضطراب الناس في مسألة التلقي والاستدلال . . فكم جرَّ هذا التخبط من انحرافات ومفاسد . .؟! وكم من مبتدع زائغ، وزنديق جائر، استطاع إفساد أديان الناس وعقائدهم، بسبب جهل الناس بأصول الاستدلال ومصادر التلقي . .!

وكم من البدع والشركيات التي توارثها الناس - جيلاً بعد جيل - بسبب إعراضهم عن الكتاب والسنة تلقياً وفهماً وتطبيقاً . .!

وأحسب أن الاعتناء بهذا الباب، من أوجب الواجبات التي ينبغي أن يتصدر لها العلماء والمصلحون والدعاة، ولهذا رأيت أن أكتب رسالة مختصرة في منهج الاستدلال في المسائل الشرعية، وسميتها: (منهج التلقي والاستدلال . . بين

(١) الحسبة في الإسلام: (ص ٦٥). ولابن تيمية رسالة جلييلة في بيان أن الرسول ﷺ بين جميع الدين، أصوله وفروعه، بعنوان: (معارج الوصول)، طبعت مستقلة، وهي في مجموع الفتاوى: (١٩/١٥٥، ٣٠٢).

(٢) الصفدية: (١/٢٦٠).

أهل السنة والمبتدعة)، على الرغم من الضعف وقلة الباع، راجياً من الله - تعالى - أن أوفق لسلامة العرض وسهولته .

وقد بدأت الرسالة بتمهيد مختصر بعنوان :

ملامح التفكير والاستدلال الديني بين الجاهلية والإسلام .

ثم قسمت الرسالة بابين :

الباب الأول : منهج أهل السنة في الاستدلال والتلقي .

ويحتوي على الأصول الآتية :

الأصل الأول : تعظيم النصوص الشرعية والانقياد لها .

الأصل الثاني : الاعتماد على السنّة الصحيحة .

الأصل الثالث : صحة فهم النصوص .

الباب الثاني : مسلك المبتدعة في التعامل مع النصوص الشرعية .

ويحتوي على الأصول الآتية :

الأصل الأول : الاجترار على رد النصوص الثابتة والجرأة في الاعتراض

عليها .

الأصل الثاني : العبث في المصادر الشرعية للاستدلال وتشويهها .

الأصل الثالث : ابتداع أصول جديدة للاستدلال والتلقي .

أسأل الله - عز وجل - أن يجعلنا من المعتصمين بكتابه وسنّة نبيه ﷺ، وأن

يعيدنا من نزغات الشيطان، ومضلات الأهواء والفتن .

وصلّى الله على نبيّنا محمد وآله وسلم

أحمد بن عبد الرحمن الصويان